

العين

* دموع العين إجراء تقوم به العين حمايةً لها ، أو تعبيراً عن مشاعر الحزن أو الفرح ، وفي ذلك يقول شاعرنا:

ياعينُ قد صار البكى لك عادةً

تَبْكِينَ فِي فَرَحٍ وَفِي أَحْزَانٍ

* وشغلت تلك «الظاهرة» «عيون الشعراء» فأفاضوا في التعبير عنها ، وتباروا في تصوير المواقف المختلفة الحافلة بمشاعر الحزن أو الفرح!

وفي البدء كانت دعوة من امرئ القيس ، لوقفه للبكاء على الأطلال:

فَقَاتِبَكَ مَهْ ذَكَرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ

* وتترقق الدموعُ تبعاً في أعين المحبين ثم تفيض فيضاً وفي ذلك يقول قيس بن ذريح:

هَلِ الْحُبُّ إِلَّا زَفْرَةٌ ثُمَّ عَبْرَةٌ

وَحَرٌّ عَلَى الْأَحْشَاءِ لَيْسَ لَهُ بَرْدٌ

وَفَيْضُ دُمُوعٍ تُسْتَهْلُ إِذَا بَدَأَ

لَنَا عَلَمٌ مِنْ أَرْضِكُمْ لَمْ يَكُنْ يَدُو

* ولم تعد الدموع - تترقق في أعين المحبين ، ثم تفيض - بكافية في التعبير عن مشاعر المحبين فإذا هي عند الآخرين سحب ممطرة: وفي هذا يقول الشاعر:

أَظْهَرَ الْكِبْرِيَاءَ زَهْواً وَتِيهًا

فَتَلْقَيْتُهُ بِذُلِّ الْخُضُوعِ

وَحَبَانِي رُبِعُ خَدَيْهِ بِالْوَرِّ

د فَاَمْطَرَتْهُ سَحَابَ دُمُوعِي



* ولا يتوقف المحبون عند جعل الدموع سحبا ممطرة ، بل هي : «السيل الجارف» وفي ذلك يقول أحد المحبين من الشعراء:
ولما أبى الواشون إلا فراقنا

ومالهمو عندي وعندك من ثار
غزوتهم من مقلتيك وأدمعي

ومن نفسي بالسيف ، والسيل ، والنار
ومن السيول تكون الأنهار ، فيرى أحد المحبين دموعه وقد أصبحت أمام
عينيه أنهارا فيقول:

أحبابنا إن نأت بي عن دياركمو
دار ، وفارقت أوطانا وأوطارا
فإن لي نضب عيني من جمالكمو

روضا نضيرا ، ومن عيني أنهارا
* وليس فوق الأنهار إلا البحار فإذا الدموع بحار وفي ذلك يقول الشاعر:
غرق النوم في بحار دموعي

رحم الله سلوتي وهجوعي
وأتى الطيف زائرا فـرآني

بين بحرئ مدامعي ونجيعي^(١)

عندما نتحدث الدموع

* يقول ذو القرنين التغلبي:
لو كنت ساعة بيننا ما بيننا
وشهدت حين تكرر التوديعا

(١) النجيع : دم الجوف .



أَيَقْنَتَ أَنَّ مِنَ الدُّمُوعِ مُحَدَّثًا
وَعَلِمْتَ أَنَّ مِنَ الْحَدِيثِ دُمُوعًا

يَا مَن خَلَقْتَ الدَّمْعَ

* وَيُنَاجِي شَاعِرُ النَّيْلِ رَبَّهُ أَنْ يَبَارِكَ لَهُ فِي الدَّمُوعِ فَيَقُولُ :
يَا مَنْ خَلَقْتَ الدَّمْعَ لُطْفًا مِنْكَ بِالْبَاكِي الْحَزِينِ
بَارِكْ لِعَبْدِكَ فِي الدَّمُوعِ ؛ فَإِنَّهَا نِعَمَ الْمَعِينِ

دُمُوعٌ وَأَرْقٌ

لَوْ شَابَ دَمْعِي بِحَارِ الْأَرْضِ أَغْرَقَهَا
مِنْ مُقْلَةٍ حَرُّ نَارِ الْوَجْدِ أَرْقَهَا

وَكَتَبُ الْأَدبِ حَافِلَةٌ بِمَا قَالَهُ الشُّعْرَاءُ فِي الْبُكَاءِ وَالْدُمُوعِ !

ولقد أفرَدَ «أبو علي القالي في أماليه» مطلباً لما قاله الشعراء في «البكاء
والدموع» ، وبدأ بمجنون بنى عامر فقال : كان يقال له عندما يسأل :

أَيْنَ أَنْتَ مِنْ أَرْضِ بَنِي عَامِرٍ ؟ ! عَلَيْكَ بَنَجْمٌ كَذَا وَكَذَا ، فَيُضْرَبُ حَتَّى يَأْتِيَ
أَرْضَ بَنِي عَامِرٍ ، فَيَقِفُ عِنْدَ جَبَلٍ لَهُمْ يَقَالُ لَهُ : التَّوْبَادُ ، وَيَنْشُدُ :
وَأَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَادِ حِينَ رَأَيْتُهُ

وَكَبَّرَ لِلرَّحْمَنِ حِينَ رَأَى
فَأَذْرَيْتُ دَمْعَ الْعَيْنِ لَمَّا رَأَيْتُهُ

وَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ فَدَعَانِي (١)
فَقُلْتُ لَهُ : أَيْنَ الَّذِينَ عَاهَدْتَهُمْ

حَوَالَيْكَ فِي أَمْنٍ ، وَخَفَضَ زَمَانُ (٢) ؟

(١) أَذْرَيْتُ الدَّمْعَ : أَسْلَيْتُهُ .

(٢) خَفَضَ زَمَانُ : لَبِنَ الْعَيْشَ وَنَعِيمَهُ .



فقال : مَضَوْا واستودعوني بلادهم

ومن ذا الذى يبقى على الحدثان

وانى لأبكي اليوم من حَذَرى غدا

فراقك ، والحِيانِ مُجْتَمَعانِ

سَجَلاً ، وَتَهْتَاتَا ، وَوَبْلاً ، وديمة

وَسَحًا ، وَتَسْكَابًا ، وتنهملان^(١)

* ثم يمضى حتى يأتى العراق ، فيقول مثل ذلك ، ثم يأتى اليمن فيقول
مثل ذلك .

* وأنشد أبو بكر بن الأنبارى للمجنون :

ذُذِ الدَّمْعِ حَتَّى يَظْعَنَ الحَيُّ إِنَّمَا

دَمُوعُكَ إِن فَاضَتْ عَلَيْكَ دَلِيلُ

كَأَنَّ^(٢) دَمُوعَ العَيْنِ يَوْمَ تَحْمَلُوا

جُمَانًا عَلَى جَيْبِ القَمِيصِ يَسِيلُ^(٣)

* ويقول العسكرى :

لهيبُ قلبي أفاضَ الدَّمْعَ من بَصَرِي

والْعُودُ يَقْطُرُ ماءً حينَ يحترقُ !

سَدُّ ذَلِكَ الْبُكَاءِ الدَّائِمِ وَسَخُونَةُ الْعَيْنِ

* هل صحيح أنه ليس فى الأرض أشقى من محب ، وإن وجد الهوى حلو
المذاق ؟ ! .

(١) إنه يبكى سجلاً : والسجال جمع سَجَل : الدلو العظيمة مملوءة . وتهتانا : مطراً يفتقر ثم يعود . ووبلاً :

مطراً شديداً . وديمة : مطراً يطول زمانه فى سكون . وَسَحًا : تصب دموعه صَبًا متتابعاً كثيراً .

والتسكاب والسكب : الهطلان الدائم من المطر وغيره كالدموع . وتنهملان : تسيلان ، وتفيضان .

(٢) ذُذِ الدَّمْعِ : ادفعه وامنعه . والظعن : السفر . تحملوا : رحلوا .

(٣) جُمَان : فضة .



يعبر شاعرنا عن تجربته فيقول ذاكر السبب:

تراه باكياً في كُلِّ حين مَخَافَةً فُرْقَةً أَوْ لاشْتِيَاقٍ
فيكي إن نأوا شوقاً إليهم ويكي إن دنوا خوف الفراقِ
فَتَسْخَنُ عينُه عند التناهي وتَسْخَنُ عينُه عند التلاقِي
وإذا عُرِفَ السبب بطل العجب!

* ويرى ابن الفارض أن «إنسان العين» قد مات حين سخنت ولم تقرر ،
فيقول:

وقد سخنت عيني عليها كَأَنِّي
بها لم تكن يوماً من الدهر قَرَّتْ
فإنسانها مَيِّتٌ ، ودَمْعِي غُسْلُهُ
وأكفائه ما ابْيَضَ حُزْناً لِفُرْقَتِي

دَمْعٌ مُضَيِّعٌ

* ومن الشعراء من لا يضيع دمه على غير ليله فيقول:

إذا كان هذا الدمعُ يجرى صَبَابَةً
على غير لَيْلِي ؛ فهو دَمْعٌ مُضَيِّعٌ
* ومنهم من يغسل عينيه بدموعه إن هي نظرت إلى غير ليلي لكي تطهرها
المدامع فيقول:

وكيف ترى ليلي بعينٍ ترى بها
سواها وما طَهَّرَتْهَا بالمدامع
* إنما يُجِلُّها عن العين فيقول:
أَجِلُّكَ ياليل عن العين إنما
أراك بقلبٍ خاضعٍ لك خاشعٍ



دليل الأسى!

* ونسأل «ابن حزم الأندلسي» الذي عاش في القرن العاشر وعاشت أبياته وأفكاره حتى عصرنا عن «دليل الأسى» فيقول:
دليل الأسى نار على القلب تَلْفَحُ

ودمعٌ على الخدين يَهْمِي وَيُسْفَحُ^(١)
إذا كتم المشغوف سِرَّ ضُلُوعِهِ
فإن دموعَ العين تجرى وتَفْضَحُ
إذا ما جُفُونُ العين سالتْ شُئُونَهَا^(٢)
ففى القلب داء للغرام مُبْرَحُ^(٣)

من أحس ما قيل في الدموع

* وأنشد أحمد بن يحيى:
ومُستَجِدٍ بالحزنِ دَمْعًا كَأَنَّهُ
على الخدِّ - مما ليسَ يرقاً - حائِثُ^(٤)
إذا دِيمَةٌ منه استَقَلَّتْ ، تَهَلَّلَتْ
أَوَائِلُ أُخْرَى مَالِهَنَ أَوَاخِرُ^(٥)
مَلَا مُقْلَتَيْهِ الدَّمْعُ حَتَّى كَأَنَّهُ
لما انْهَلَ من عينيه فى الماءِ نَاطِرُ^(٦)

(١) همت العين : صبت دموعها . وهمى الدمع : سال وسفح الدمع : صبه .

(٢) شئون العين : مجاريها الدمعية .

(٣) مُبْرَح : شديد . يجهده ويشق عليه .

(٤) يقال : رقا الدمع : سكن وجف وانقطع بعد جريانه ، وليس يرقاً : لا يجف .

(٥) الديمة : المطر يطول زمانه فى سكون ، والجمع دِيم ، استقلت : رحلت .

(٦) انهل : يقال : انهل الدمع : تساقط .



* وزاد بعضهم في آخرها بيتا يقول فيه :

وينظر من بين الدموع بمقلةٍ

رمى الشوق في إنسانها فهو ساهرٌ

* ومما قرىء على أبي بكر بن دُرَيْد رحمه الله :

نظرت - كأني من وراء زجاجة

- إلى الدارِ من ماءِ الصبابةِ أنظرُ

فعينايَ طوراً تفرقان من البكا

فأعشى ، وحيناً تحسران فأبصرُ^(١)

عيون لا تبقى على دموعها!

* وأنشد عبد الله نبطويه لذي الرُّمة :

وما شتتاً خرقاءَ واهيتا الكلى

سَقَى بهما ساقٍ ولما تبللا

بأضيعَ من عينيك للدمع كلما

تذكرتَ ربعاً أو توهمتَ منزلاً^(٢)

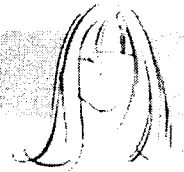
يستعيد عينا دموعها مدار

* ويقول بشار : ما زال غلام من بني حنيفة يدخل نفسه فينا ، ويخرجها

منا حتى قال :

(١) فأعشى : يسوء بصرى . وأكون كالأعشى الذى يسوء بصره ليلاً . تحسران : تنكشف عنهما الدموع .

(٢) شتتاً : مثنى شتن ، وهى القرية الخلق الصغيرة . والخرقاء : المرأة غير الصنّاع التى لا تحسن شيئاً . ومثلها تكون قربتها واهية مشقوقة - يسيل ماؤها - والكلى : الجوانب .. تبلل : تندى . ومثل هذه القرية لا تبقى على ماء ، فكذلك عيناه كلما تذكر ربعاً ، أو توهم منزلاً تنزل فيه محبوبته ، فهما أضيع للدموع من قرية الخرقاء لما فيها من ماء .



نَزَفَ الْبُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فَاسْتَعَرُ
عَيْنًا لَغَيْرِكَ دَمْعُهَا مِدْرَارُ
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنُهُ تَبْكِي بِهَا
أَرَأَيْتَ عَيْنًا لِلْبُكَاءِ تُعَارُ؟!

الدمعة المعلقة

* ومما أنشدهُ البحترى لنفسه:
وَقَفْنَا وَالْعَيُونَ مُشَعَّلَاتٌ
يَغَالِبُ دَمْعُهَا نَظْرَ كَلِيلٍ^(١)
نَهْتُهُ رُقْبَةً الْوَاشِينَ حَتَّى
تَعْلُقَ لَا يَفْـَٔيْضُ وَلَا يَسِيلُ

في مهجته ودموعه عوض من السقيا!

* وأنشد دعبل الخزاعي:
يَا رَبِّعُ^(٢)، أَيْنَ تَوَجَّهْتَ سَلْمَى
أَمْضَتْ، فَمَهْجَةٌ نَفْسِهِ أَمْضَى؟
لَا أَبْتَغِي سَقَى السَّحَابِ^(٣) لَهَا
فِي مَهْجَتِي عَوْضَ مِنَ السُّقْيَا

(١) مشعلات : متوقدات ملتهبات .

(٢) الربيع : الدار .

(٣) كما هي عادة العرب في الدعاء للمحبوب بالسقيا حيث الماء كل شيء في حياتهم .



دموعُ تبصر الوصل هاربا فتجري لتذكره!

* وأنشد لحظة لنفسه:

ومن طاعتى إياه أمطرُ ناظرى
له حين يُبْدى من ثناياه لى بَرِّقا
كأن دُموعى تُبصرُ الوصل هاربا
فمن أجل ذا تجرى لتذكره سَبَقا

دمعه نمام لا يكتُم شيئا

* وكان أبو بكر بن دُرَيْدٍ يستحسن قول أبي نَواصٍ فى هذا المعنى:

لا جَزَى الله دمعَ عَيْنِي خيرا
وجزى الله كلَّ خيرٍ لسانى!
نَمَّ دَمْعِي ، فليس يكتُم شيئا
ورأيت اللسانَ ذا كتمان
كنت مثلَ الكتاب أخفاه طي^(١)
فاستدلوا عليه بالعنوانِ

جفنان لا قدرة لهما على التحمل

* وأنشد نبطويه لنفسه:

قلبي عليك أرقُّ من خَدَيْكَ
وقَوَاى أَوْهَى من قَوَى جَفْنَيْكَ
لَمْ لا تَرِقْ لمن تُعَذِّبُ نَفْسَهُ
ظُلما ، ويعطفه هواه عليكاً؟!

(١) مثل الرسالة المطوية لا يدري ما تضمنته ؛ ولمن هى ؟

(٢) أوهى : أضعف .

(٣) يعطفه : يميله .



صباية لو أنها دمعة ...

* وأنشد أبو بكر بن دريد لنفسه:

إن الذي أبقيت من جسْمِه

يأْمُتْلِف الصَّبَّ ولم يَشْعُرِ

صباية لو أنها دمعة

تجول في جفْنِك لم تقْطُرِ

دموع نفدت قبل نفادها

* يقول الخوارزمي:

خَلِيلِي هل أبصرتما مثل أدْمُعِي

نفدت - وحق الله - قبل نفادها!

كلنا يبكي على سكونه

* عباس بن الأحنف شاعر عاشق ، شهد له البحتری بأنه أغزل الشعراء ، وقصائده في حبيبته «فوز» تنطق بعاطفة صادقة ، وشاعرية أصيلة ، ولغة شعرية عذبة سائغة لا تكلف فيها ولا تصنع ، تنساب إلى الناس رقيقة صافية ... روى المسعودي في كتابه به «مروج الذهب» : أن شاعرنا حين أغمى عليه تحت شجرة إذ أقبل طائر فوقع على الشجرة ، وجعل يغرد ، ففتح عينيه ، وجعل يسمع تغريد الطائر ، ثم أنشأ يقول:

طائر يبكي على فَنَنِهِ (١)

ولقد زاد الفؤاد شجاً

كلنا يبكي على سكونه (٢)

شفه ماشفني ، فبكي

(١) شجي : حزنا . والفنن : الغصن .

(٢) شفه : يقال : شفه لهم : هزله . والسكن : كل ما سكنت إليه النفس كالحبوبة .



عَصَى الدَمْعِ

* وأبو فراس في مَطَوَّلته «أراك عَصَى الدَمْعِ» يصور لنا ما يلقاه المحب بتصوير وجدان الفارس الذى يذوب رقةً وعَاطفةً ، ولكن فى اعتزاز وشموخ من خلال نفس أبيه ترفض كل ذلة ، ولا تعرف إلا الإباء والجرأة والإقدام ، فبينما هو يذوب وجدا وهياما فى مواقف الحب والصبابة لا يحنى رأسه ، ولا يدوس على كرامته ، لكنه دائما شامخ أبى... إنه يقول:

أراك عَصَى الدَمْعِ شيمتك الصبر^(١)

أما للهوى نهى عليك ولا أمر؟!

بلى؛ أنا مشتاق ، وعندى لوعة

ولكن مثلى لا يُذاع له سرُّ

إذ الليل أضواني بسطت يد الهوى

وأذلت دمعاً من خلائقه الكبير^(٢)

الزهرة الباكّة

* ويحدثنا الشاعر «على محمود طه» فى قصيدته له عنوانها :

«الموسيقا العمياء» فيقول:

شُعاعُ الكَوَكَبِ الفَضَى

إذا ما طَافَ بالأَرْضِ

وجاشَ البرقُ بالوَمِضِ^(٣)

إذا ما أَنتَ الرِّيحُ

عيونَ النرجسِ الغَضِ^(٤)

إذا ما فَتَحَ الفَجْرُ

(١) شيمتك : طبعك وخلقتك .

(٢) أضواني : عذبنى وشجاني . خلائقه جمع خليفة ، وهى الطبع والصفة المميزة .

(٣) جاش : تحرك واضطرب . ويقال : ومض البرق : لمع خفيفا وظهر .

(٤) الغض : الطرى الحديث من كل شئ .



بَكَيْتُ لَزَهْرَةٍ تَبْكِي بَدَمَعَ غَيْرُ مَرْفُضٍ^(١)
 زَوَاهَا الدَّهْرُ لَمْ تَسْعُدْ مِنْ الْإِشْرَافِ بِاللَّمْحِ^(٢)
 عَلَى جَفْنَيْنِ ظَمَائِيٍّ مِنْ لِلْأَنْدَاءِ وَالصُّبْحِ
 أَمْهَدَ النُّورِ مَالِيٍّ لَقَدْ لَفَّكَ فِي جُنْحِ؟
 أَضِيءُ فِي خَاطِرِ الدُّنْيَا وَوَارَسَنَّاكَ فِي جُرْحِي!
 وَخَلَى أَدْمَعَ الْفَجْرِ تُقْبِلُ مَغْرِبَ الشَّمْسِ

قَالَتْ

وَلَا يَنْسَى عَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ ذَلِكَ الْلِقَاءَ مَعَ مَحْبُوبَتِهِ «فُوز» فَيَقُولُ:
 الْيَوْمَ طَابَ الْهَوَى يَامَعْشَرَ النَّاسِ
 وَأَلْبَسْتُ «فُوزُ» حُبِّي كُلَّ الْبَاسِ
 قَالَتْ - وَانْسَانَ مَاءِ الْعَيْنِ فِي لُجَجِ:
 يَكَادُ يَنْطِقُ عَنْ قَلْبٍ ، وَوَسَّوَسِ
 يَطْفُؤُ وَيَرْسُو غَرِيقًا مَا يُكْفِكِفُهُ
 كَفٌّ ، فَيَالِكَ مِنْ طَافٍ وَمِنْ رَاسِ
 عَبَّاسُ لَيْتَكَ سِرَّ بَالِي عَلَى جَسَدِي
 أَوْ لَيْتَنِي كُنْتُ سِرْبَالًا لِعَبَّاسِ
 يَا رَبَّ جَارِيَةٍ أَسْبَلْتُ عَبْرَتَهَا
 مِنْ رَقَةٍ ، وَلَغَيْرِي قَلْبَهَا قَاسِي

(١) مَرْفُضٌ : يُقَالُ : ارْفَضَ الدَّمْعُ : تَفَرَّقَ وَزَالَ ، وَتَبَدَّدَ . وَغَيْرُ مَرْفُضٍ : لَا يَنْقَطِعُ . مُتَوَاصِلٌ . دَائِمٌ .

(٢) زَوَاهَا الدَّهْرُ : ذَهَبَ بِهَا وَنَحَاها . بِاللَّمْحِ : بِتَصْوِيبِ بَصَرِهَا إِلَيْهِ وَالتَّمَتُّعِ بِهِ .



دموعُ العشق!

وتحت عنوان «حديث الروح» للشاعر محمد إقبال حيث نظمها بالعربية
الشاعر الشيخ الصاوي شعلان يقول:
لقد فاضت «دموعُ العشق» مني
حديثاً كان علويَّ النداءِ
فحلّق في ربّ الأفلاك حتى
أهاج العالمَ الأعلى بكائي

دمعتي تعلم وجدى!

* ولعلّى بن جبلة:

دمعتي تعلمُ وجدى واشتياقي فسليها
لى من ذكرك مرآة أرى وجهك فيها

باكيت بأربعة سجام

* وللمتنبي يصف أهم أعراض الحمى المعروفة فى الطب:

وزائرتى كأن بها حياء فليس تزور إلا فى الظلام^(١)
كأن الصبح يطردها فتجرى مدامعها بأربعة سجام^(٢)

دموعُ تعدُّ مساوىء الدنيا

* يقول ابن قلاؤس شاكيًا الدنيا وكثرة دموعه:

كأن دموعى إذ تكاثر وقعها تعدُّ على الدنيا بهنّ المساوياً

(١) حرارة الحمى ترتفع بالليل .

(٢) يريد بالأربعة السجام : مجارى الدموع من الموقين واللحظين . والدمع يجرى عادة من الموقين - وهما مما يلي الأنف - فإذا كثر جرى من اللحظين - وهما مما يلي الصدغ .



مشاركة وجدانية!

وحين فرغ الشعراء من بكاء العين ، تخيلوا البكاء من غيرها

* فالسحاب يبكي:

رُبِّي شَفَعَتْ رِيحُ الصَّبَا لِرِيَاضِهَا

إِلَى الْمَزْنِ حَتَّى جَادَهَا وَهُوَ هَامِعٌ^(١)

كَأَنَّ السَّحَابَ الْغُرَّ غَيَّبَنَ تَحْتَهَا

حَبِيبًا فَمَا تَرَقَّا لَهَنَ مَدَامِعُ^(٢)

* والساقية ، أو الناعورة ، أو الدولاب يبكي:

لِلَّهِ دُولَابٌ يَفِيضُ بِجَدْوَلٍ

فِي رَوْضَةٍ قَدْ أَيْنَعَتْ أَفْنَانًا

فَكَأَنَّهُ دَنَفٌ يَدُورُ بِمَغْهَدٍ

يَبْكِي وَيَسْأَلُ فِيهِ عَمَّنْ بَانَا^(٣)

ضَاقَتْ مَجَارِي جَفْنِهِ عَنْ دَمْعِهِ

فَتَفْتَحُ أَضْلَاعُهُ أَجْفَانًا

* والقلم يبكي:

مَا أَبْطَأَتْ أَخْبَارُ مَنْ أَحْبَبْتُهُ

عَنْ مَسْمَعِي بِقُدُومِهِ وَرُجُوعِهِ

إِلَّا جَرَى قَلَمِي إِلَيْهِ حَافِيًا

وَشَكَا إِلَيْهِ تَشَوُّقِي بِدُمُوعِهِ

(١) رُبِّي : جمع روبة ، وهي المكان العالي حيث تكون الرياض أبهج وأجمل وأحسن ، وريح الصَّبَا - بصاد مفتوحة - ريح مهبها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار (مؤنث) . والمزن : السحاب يحمل الماء . وجادها : سقاها . همع الطل على الشجرة : سال عليها .

(٢) الْغُرَّ : جمع أغر وهو الأبيض . ما ترقَّا : ما تجف .

(٣) الدَّنَف : المريض ومرضه هنا بسبب بعد الحبيب . وبانا : بعد . والمعهد : محضر الناس ومشهدهم ومكان الذكريات .



والحشاً تبكى:

فإن تُنفِدِ الدَّمْعَ نَارَ الأَسَى

بكتك الحشاً بدموع الضمير!

والكون يبكى:

وآخرُ دَمْعَةٍ للكون تمتزج بدموع الشاعر!

ففى صدر شبابه سنة ١٩٠٢ م ، ذهب إلى الأسكندرية للاستشفاء من مرض
ألم به ووقف «خليل مطران» شاعر القطرين : مصر ولبنان على شاطئ البحر
يتأمل الشمس الغاربة ، ويشكو ألمه ويصف مشاهد الطبيعة ، ويحن لحبيبته ساعة
الإمساء ، فإذا كدرة البرية صاعدة إلى عينيه من الأحشاء!!

وإذا الأفق متعكر قريح الجفن!!

وإذا خواطره تتراءى لعينيه كدامية السحاب!!

وإذا الدمع يسيل من جفنه مُشْعَشَعًا بَسَنَى الشُّعَاعِ الغارب ! وإذا الشمسُ فى
انحدارها الأخير بين السحاب كأنها آخر دَمْعَةٍ للكون تمتزج بدموع الشاعر
لترثيه ، ومن كل هذا تتكون المرأة التى يرى فيها الشاعر نفسه!

يَا لَلْغُرُوبِ ، ومابه مِنْ عَبْرَةٍ

للمستهام ، وَعِبْرَةٌ للرأى!

ولقد ذكرتكَ والنهارُ مُودَّعٌ

والقلبُ بين مهابةٍ ورجاءٍ

وخواطرى تبدو تجاه نواظرى

كَلَمَى كدامية السحابِ إزائى

والدمعُ من جَفْنَى يسيلُ مُشْعَشَعًا

بَسَنَى الشُّعَاعِ الغاربِ المترائى

والشمسُ فى شفقٍ يسيلُ نُضَارُهُ

فوق العَقيقِ على ذُرَى سوداءٍ

حديث العيون وهمس الجفون



مرت خلال غمامتين تحذرا
وتقطرت كالدمعة الحمراء
فكان آخر دَمعة للكون قد
مُزجت بآخر أدمعى لراثى
وكأننى آنستُ يومى زائلاً
فرايت فى المرأة كيف مسانى؟!

الدموع من منظور آخر!

* ولم تتوقف نظرة الشعراء إلى الدموع عند «الكم» بل تعدته إلى
«الكيف»:

فمنهم من جعلها دما وفى ذلك يقول قائلهم:
ولَمَّا وقفنا للوداع عَشِيَّةً
وقد خفقت فى ساحة القصر راياتُ
بكينا دَمًا حتى كأنَّ جُفُوننا
بجَرى الدموع الحُمُرِ فيها جراحاتُ
* وهناك شاعر آخر يبكى كل شىء بمثله فيقول:
وقد صرت أبكى كل شىء بمثله
لأننى فردٌ فى الصبابة والوجدِ
فشغرك أبكيه بأبيض أدمعى
وأحمرها أبكى به خدك الوردى
* ومنهم من يجعل الدمع عقيقاً أو مرجاناً ، فيقول:
لست أنسى ساعة البين وقد
وجمَ الشائق منا والمشوق



ورجوعي بدموعي عاثراً
 لست أدري بعدهم أين الطريق؟
 كلما أمّ العقيق امتزجت
 أدمعي فهي جمان ، أو عقيق
 * ثم إذا كان الدمع أبيض فهو نجوم:
 عيناى مُدْ شَطَّ المزارُ بكم^(١)
 تحكى سَمَا ، والدمعُ أنجمها

* أو لؤلؤ ودر:
 هو ذلك الدرّ الذى ألقىتمو فى مَسْمَعى ألقيته من أدمعى

عيون تُمطر لؤلؤاً

* وهذا يزيد بن معاوية يدير حواراً بين محبوبته وطيف الخيال الذى زاره:
 قالت لطيف خيال زارنى ومضى:
 بالله صِفْهُ ولا تَنْقُصْ ولا تَزِدْ
 فقال : خلفته لومات من ظمأ
 وقلت : قِفْ عَن ورود الماء لم يرد
 قالت : صدقت. الوفا فى الحب شيمته
 يابرد ذاك الذى قالت على كبدى!
 واسترجعت ، سألت عنى ، فقل لها:
 مافيه من رَمَقٍ ، دَقَّتْ يَدَا بَيْدٍ
 وأمطرت لؤلؤاً من نرجس ، وسَقَّتْ
 ورداً ، وعَصَّتْ على العُنب بالبَرْد^(٢)

(١) بعد الأحبة ، وبانوا .

(٢) العُنب : (بضم العين) فاكهة تشبه حبة الزيتون وأجوده الأحمر ، والمقصود به شفتا محبوبته ، أما البرد فالمقصود به أسنانها البيضاء الناصعة .



بُكَاءُ الدَّمَاءِ لَا يَكْفَى!

وفى ذلك يقول على بن أبى طالب رضى الله عنه فيما نسب إليه:
شيمان لو بكتِ الدماءُ عليهما

عَيْنَاىَ حَتَّى تُؤْذِنَا بِذَهَابِ
لَمْ تَبْلُغَا الْمَعِشَارَ مِنْ حَقِّيهِمَا:
فَقَدْ الشَّبَابَ ، وَفُرْقَةَ الْأَحْبَابِ!

دموع الفرح

هَجَمَ السُّرُورُ عَلَى حَتَّى إِنَّهُ
مَنْ فَرَطٍ مَا قَدْ سَرَّنَى أَبْكَانِي
يَاعَيْنُ قَدْ صَارَ الْبُكَى لَكَ عَادَةً
تَبْكِينَ فِى فَرَحٍ وَفِى أَحْزَانِ

دُمُوعُ الدَّمُوعِ

ولخالد الكاتب:

بَكَى عَاذِلِي مِنْ رَحْمَتِي فَرَحْتُهُ وَكَمْ مِثْلُهُ مِنْ مُسْعِدٍ وَمُعِينِ
وَرَقَّتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ حَتَّى كَانَهَا دُمُوعُ دُمُوعِي ، لَا دُمُوعُ جَفُونِي

دموع التماسيح!

* إذا كان الشيء بالشيء يذكر ، فإن «دموع التماسيح» : كناية عن النفاق
والخداع لأن التماسيح يدمع إذا همَّ بفريسته! وليس الدمع دلالة على الحزن .
فَرُبَّ كَتِيبٍ لَيْسَ تَنْدَى جَفُونُهُ وَرُبَّ كَثِيرِ الدَّمْعِ غَيْرِ كَتِيبٍ!



إلى الباحثين عن الراحة!

إذا لم يكن إلا إلى الدمع راحة
فلا زال دمع العين منهلاً سكبا

سلي دموعي

* الشاعر عبد القادر رشيد يحكم دموعه قائلاً:

أحبك... هل علمت؟ سلي دموعي
على كفيك ، لو سئلت تبوح

* وللشاعر الجواهري قصيدة عنوانها : «ما تشاءون» يقول فيها:

مزقوا ما استطعتم من جلود ورقعوا
هل سوى أن أعيننا بدم القلب تدمع؟!

ذكريات حزينة

* وللشاعر خيرى الهنداوى:

أيتها العين إن ذكرت بلادى
فأمطري لؤلؤاً ، وسيلي عقيقاً!

الدمع يفضح

* ويقول مهيار الديلمى:

هبنى أستر النجوى ليس الدمع يفضحنى؟
لسانى فيك أملكه ودمع العين يملكنى!

قراءة الدموع

إن للدمع معانى ودلالات ، نقرأها فى مختلف الظروف والحالات:

حديث العيون وهمس الجفون



* فهناك دمع ضاحك ، ودمع باك :
رأت دُموعى ، فقالت : عَيْنُكَ ابْتَسَمَتْ

عن لُؤْلُؤْ بسلوك الجَفْنِ جَذْلَانُ
وغالطتنى فى جَعَلِ الْبُكَاءِ ضَحِكًا
واستَخَوْنَتْ . أَيْنَا يَامَى خَوَانُ؟^(١)

* وهناك دمع حُزْنٍ ودَلَالٍ :
أبكى ، وتبكى غَيْرَ أَنْ الْأَسَى
دُمُوعُهُ غَيْرُ دُمُوعِ الدَّلَالِ !
* وهناك دمع ساخن وآخر بارد :

شَكُوتُ حَتَّى لَانَ مِنْ قَسْوَةٍ
وَرُحْتُ أَبْكَى وَهَوْلَى مُسَاعِدُ
وقال : ها نحن سواءٌ فى الْبُكَاءِ
لا يَسْتَوِى دَمْعٌ عَلَى جَمْرِ الْغَضَا^(٢)
إِذَا جَرَى ، وَدَمْعٌ عَيْنٍ بَارِدُ

* وهناك دمع سرور ودمع رحمة :
رُحْتُ يَوْمَ الْفِرَاقِ أَضْحَكُ حُزْنًا
ولَفِيضِ السُّرُورِ يَبْكِي الْمُرُوعُ^(٣)
وكذا فى اللِّقَاءِ أَبْكَى هَنَاءُ
ولَفِرْطِ السُّرُورِ تَهْمِي الدُّمُوعُ^(٤)

(١) جذلان : فرحان . استخونت : اتهمتني بخيانتها حيث تصورتي أني أضحك بينما أبكى .

(٢) الغضا : شجر ناره قوية ، والمراد صادر عن قلب محترق .

(٣) راعه الشيء ؛ فهو مرُوع . أعجبه فهو معجب !

(٤) تهمة : تسيل .



وقفتُ فى الرُّوضِ أبكى فَقَدْ مُشْبِهه
حتى بَكَتْ بِدُمُوعِي أَعْيُنُ الزُّهْرِ
لَوْلَمْ أَعْرِهَا دُمُوعَ الْعَيْنِ تَسْفَحُهَا
لِرَحْمَتِي لاسْتَعَارَتْهَا مِنَ الْمَطَرِ

ياويلنا هذه الدموع!

من يتتبع الحالة النفسية التى تصاحب الدمع ، أو تعقبه ، يقف على الكثير من أحوال المحبين والمحزونين .

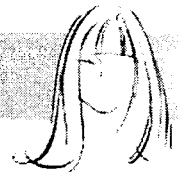
* فهو فاضح للسر كاشف للستر:

لا جَزَى الله دَمْعَ عَيْنِي خَيْرًا
وَجَزَى الله كُلَّ خَيْرٍ لِسَانِي
نَمَّ دَمْعِي ، فليس يَكْتُمُ شَيْئًا
ووجدتُ اللِّسَانَ ذا كِتْمَانٍ

* وهو شاهد على الحب من أهله:

أنا صَبٌّ ، وماء دَمْعِي صَبٌّ
وأسير من الضَّنَى فى قُيُودِ
وشُهُودِي على الهوى أَدْمَعُ الْعَيْنِ
من ، ولكننى قَذَفْتُ شُهُودِي
* وعندما يخاف الرقباء تحار الدموع فى الجفون:

وقفنا والعُيُونُ مُثْقَلَاتٌ
يغالب طَرْفُهَا نَظْرَ كَلِيلٍ
نَهَتْهُ رِقَبَةُ الْوَاشِينَ حَتَّى
تعلق لا يَغِيضُ ولا يَسِيلُ



* وقد تكون الدموع تخفيفاً لهمّ دفين ، وتلطيفاً لحزن أليم ، وتفريجاً
لكرب جسيم :

لا تَلُمُ في البكاء فالدمع لو لم
يَجِرْ في الخدّ كان في القلب جَمراً

* والدموع على الأحزان أعوان :

أرسل دموعك يومَ البين إن بانوا^(١)

إن الدموعَ على الأحزانِ أعوانُ

* وفيض الدموع يُطفئُ لظى القلب :

دعوني ودمعي عسى فيضُه

به تنطفئ نار قلبي المروع

فمن شؤم حظي في الحب أن

أرى راحتي في انسكاب الدموع

* وقد يكون الدمع انتقاماً عادلاً من العين لماجرته على القلب من هموم
وأحزان :

لأعذبَ العينَ غير مفكر

فيما جرت بالدمع أو سالت دماً

ولأهجرن من الرقاد لذيذه

حتى يعودَ على الجفون محرماً

هي أوقعتنى في حبال فتنة

لو لم تكن نظرت لكنت مسلماً

(١) بانوا : بعدوا . والبين : الفراق والبعد .



سَفَكَتْ دَمِي ، فَلَا سَفْحَنَ دُمُوعَهَا

وهي التي بدأت فكانت أظلمًا!

خَلَّ عَيْنَيْكَ تَدْمَعًا

للصِّمَّةِ بن عبد الله أبيات يودع فيها نَجْدًا فتعال إليه لنعيش معه لحظات الوداع المبللة بدموع عينيه ! ، ففي البكاء راحة!

قَفَا وَدَّعَا نَجْدًا وَمَنْ حَلَّ بِالْحَمَى
وَقَلَّ لَنَجْدٍ عِنْدَنَا أَنْ يُودَّعَا
بِنَفْسٍ تِلْكَ الْأَرْضُ ، مَا أَطِيبَ الرُّبَا^(١)
وَمَا أَحْسَنَ الْمُصْطَافَ وَالتَّرْبَعَا^(٢)
بَكَتْ عَيْنِي الْيُسْرَى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا
عَنِ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحَلَمِ أَسْبَلْتَا مَعَا
وَأَذْكُرُ أَيَّامَ الْحَمَى ثُمَّ أَنْثَنِي
عَلَى كَبْدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصْدَعَا
وَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الْحَمَى بِرَوَاجِعِ
إِلَيْكَ ، وَلَكِنْ ... خَلَّ عَيْنَيْكَ تَدْمَعًا!!

لِلْأُدْمَعِ الْحَرَى

* ونتساءل عن سر تلك الأدمع الحرى ، وهي تنهمر من أعين المحبين فتجيب الشاعرة نازك الملائكة:

لَا تَسَلَّنِي عَنْ سِرِّ أَدْمَعِي الْحَرَى

فبعض الأسرار يابى الوضوحاً

(١) بنفسى تلك الأرض : أفنديها بنفسى .

(٢) المترع : مكان الإقامة فى الربيع .



بعضُها يُؤثِّرُ الحَيَاةَ وراءَ الحِصْنَ
لُغْزًا وإن يكن مَجْرُوحًا!
بعضُها إن كَشَفَتْه تَسْتَحِلُّ حُبًّا
مُهَانًا يَمُوتُ مَوْتًا حَزِينًا
بعضُها بعضُها تَكْبُرُ أن
يَكْشِفَ عَمَّا وَرَاءَهُ أَوْ يُبَيِّنَا
ومئات الأسرار تكمن في دَمْعَةٍ
حُزْنٍ تَلُوحُ فِي مُقْلَتَيْنِ
ومئات الألغاز في سَكْتَةٍ تَهْتَزُ
خلف انطباقَةِ الشَفَتَيْنِ!

عندما تجمد العيون!

* وحين يشتد الحزن ، تجمد العين ، ولا تُسَعِفُ الحزين بدموعها!
* ومن المواقف التي جمدت فيها العينان ما تعرضت له الخنساء شاعرة بنبي
سليم حين مات أخوها صخر فراحت تستحثهما على أن يجودا بدموعهما قائلة:
أَعَيْنِي جُودًا وَلَا تَجْمُدَا

ألا تبكيان لصخر الندى؟!
* وهناك موقف سجله المنفلوطي شعرا عندما كان لقاء بين «أسماء وابنها
عبد الله بن الزبير» عندما حاصره الحجاج في مكة حتى أخرجه ، ثم عرض
عليه التسليم ، فاستشار أمه فأشارت عليه بالمواجهة حتى قتل ، وفي ذلك يقول
عن أسماء:

فأجابت والجفن قَفْرٌ كأن لم
يكُ من قبل موطنًا للدموع



واستحالت تلك الدموع بُخَارًا
صاعدًا من فُؤَادِهَا المصدُوعِ
إن موتًا في ساحةِ الحربِ خَيْرٌ
لكَ من عَيشِ ذِلَّةٍ وخُضُوعِ
وكان وداع... وكانت المواجهة... وكان استشهاده!
وأتى أمّه النعْيُ فجَادَتْ
بعد لأيٍ بدمعِهَا الممنوعِ!

في البكاء شفاء

نعم في البكاء شفاء... وأى شفاء...
إن البكاء هو الشفا
ءٌ من الجوى بين الجوانح^(١)

أثر الدموع بخدّها!

* ولأحمد بن يوسف رؤية خاصة في الفراق والدموع فهو يقول:
عَذَبَ الفِرَاقُ لَنَا قَبْلَ ودَاعِنَا
ثم اقْتَبَلْنَاهُ كَسْمٍ نَاقِعِ
وكانما أثر الدموع بخدّها
طَلَّ سَقِيطٌ فَوْقَ وَرْدٍ يَانِعِ!

(١) الجوى : اشتداد الوجد من عشق أو حزن .

والجوانح : جمع جانحة ، وهى الضلع القصيرة مما يلي الصدر .



أغزل بيت للمحدثين

* يقول المتنبي:

قد كنتُ أَشْفِقُ من دَمْعِي على بَصَرِي

فاليومَ كلُّ عزيزٍ بعدكم هانا!!

الدموع العاشقة

بنفسيَ من رَدِّ التحية ضاحا فجَدَدَ بعد اليأس في الوصل مَطْمَعِي
وحالت دموع العين بيني وبينه كأن دموع العين تعشقه معي

عندما تصبح العين غديراً

* كم يود المحب عندما يزوره محبوبه - بعد هجر طويل - أن يرعى رياضَ
الحسن في قمره المنير وها هو ذا أحد المحبين يحدثنا عن تجربته قائلاً:

أتانى زائراً من كان يُبْدِي

لِي الهَجَرَ الطويلَ ، ولا يزور

فقال الناسُ لما أبصروه:

لِيَهْنِكَ ؛ زارك القمرُ المنيرُ

متى أرعى رياضَ الحسن فيه

وعيني قد تضمنها غدير؟

* وعلي كل فالهوى لا يخفى على أحد... صبر المحب أو لم يصبر... جرى
دمعه أولم يجر كما يقول المتنبي:

بادِ هواك صَبَرْتَ أم لم تصبرا وبُكَاكَ إن لم يجر دمعك أوجرى

(١) ليهنك : هنيئاً لك .



دمعتي!

* وللأستاذ «جميل صدقي الزهاوي» قصيدة تحت هذا العنوان يقول فيها :
إنه لا يبكي بدموعه ، ولكن يبكي بشعره:

أنت ما إن تُخَفِن مُصَابِي	دمعتي ، فارجعي على الأعقاب
أنت لا تدرئين عَنِّي دَائِي	أنت لا تُصْلِحِينَ مِنْهُ خَرَابِي
أنت لا تُجَدِّبِينَ فِي شِقَائِي	أنت لا تُنْقِذِينَ مِنْ عَذَابِي
أنت لا تَدْفَعِينَ وَطْأَةَ شَيْبِي	أنت لا تُرْجِعِينَ عَهْدَ شَبَابِي
أنت لا تَقْدِرِينَ أَنْ تَهْبِيَنِي	راحَةً ، أَوْ تُسَكِّنِي أَعْصَابِي
إِنَّمَا أَنْتَ قَطْرَةٌ سَتَبْلِينِ	إِذَا سَلْتِ بُقْعَةً مِنْ ثِيَابِي
أَوْ تَضِيعِينَ بَيْنَ لِحْتِي الْبَيْضَا	ء ، أَوْ تَنْضُبِينَ فَوْقَ التَّرَابِ
ارْجِعِي ، فَالْحَيَاةُ لَيْسَتْ تُسَاوِي	أَنْ تَخْرِي مِنْ حَالِقٍ ^(١) كَالشَّهَابِ
لَا تَخْرِي وَإِنْ قَضَى أَنْ تَخْرِي	سَبَبَ قَاهِرٍ مِنَ الْأَسْبَابِ
إِنْ نَفْسِي لَا تَرْضَى أَنْ تَهْوِنِي	كشجوني ، وَإِنْ مَلَأَنْ إِهَابِي ^(٢)
يَا ابْنَةَ الْهَمِّ إِنْ غُرِفَتْكَ الْقُلُوبُ	بُ ، فَلَا تَخْرُجِي إِلَّا إِلَى الْأَبْوَابِ
دَمْعَتِي لَا تُعَوِّلِي فِي رِزَايَا	كَ عَلَى وَعْدِ دَهْرِكَ الْكَذَّابِ ^(٣)
فَارْجِعِي فِي مَهْلٍ إِلَى الْقَلْبِ مِنْ	أَنْتِ لَا تَخْلُقِينَ بِالتَّسْكَابِ ^(٤)
أَتْرِيدِينَ مِنْ مَقَرِّكَ فِي نَفْسِ	سَيِّ فَرَارًا يَنْجِيكَ مِنْ حَرِّ مَا بِي
أَنَالِمُ أَسْأَلُ الْعَيُونَ بَكَاءً	لَتَكُونِي عَنِ السُّؤَالِ جَوَابِي

(١) حالق : أعلى ، ومرتفع .

(٢) إهابي : جلدي .

(٣) لا تعولي : لا ترفعي الصوت بالبكاء .

(٤) لا تخلقين : لا ينتهي أمرك بمجرد انسكابك وسقوطك ، فالدمع يتجدد ، ويتواصل .

حديث العيون وهمس الجفون



وإذا ما هبطت بالرغم مني
إنني إن بكيت أبكي بشعري
كل بيت منه إذا عَصروه
بين شعري وما يجيش بصدري
أنا عنه مُحَدَّتٌ وهو عني
طال يادمعتي عليك عتابي
ولقد أهديه إلى الأحقَابِ
دمعةً ثرةً^(١) على الآدابِ
من شعور وشائج^(٢) الأنسابِ
وكلانا في القول غير مُجَابِ

وبعد حديث العيون والدموع تعال إلى جولة في دنيا العيون وما جاء فيها
من «طرائف ولطائف».



(١) ثرة : غزيرة كثيرة .

(٢) وشائج : جمع وشيجة وهي الصلة .



حديث العيون وهمس الجفون